

كلمة المدد

أبو محمد صالح
الهسكوري الفاسي (ت653هـ)

هو واحد من الشخصيات العلمية المغربية الأصيلة البارزة التي كانت موضع الاهتمام والعناية من قبل المجلس العلمي المحلي لإقليم "ورزازات"، بتعاون مع مجلسي "زاكورة" و"تنغير"، فتم تنظيم ندوة جهوية أولى تحت شعار:

"أعلام السلف ندوة للخلف"

لاكتشاف هذا العالم الجليل والتعريف به وبإسهاماته العلمية، خاصة وأنه يرجع إلى تاريخ مغربي عريق، وإلى منطقة مغربية جميلة لا تكاد تعرف أو تذكر إلا عندما يذكر اسم هذا العالم والاستشهاد بأقواله واجتهاداته واختياراته الفقهية والأصولية في ثنايا كتب المذهب المالكي. لقد وفق المجلس العلمي لورزازات غاية في هذا الاختيار، خاصة وأن أعمال الندوة في يومها الثاني أقيمت بمنطقة "هسكورة" الموطن الأصلي للعالم المحتفى به بعد انطلاق أعمالها في اليوم الأول بقصر المؤتمرات بورزازات المدينة.

وجاءت هذه المناسبة مناسبة لاكتشاف الحاضرين والدعويين لهذه المنطقة لأول مرة والتعرف على معالمها البارزة، وغنائمها الجغرافية والحضارية، وربط حاضرها بماضيها في شخص هذا العالم الجليل، والذي تنعقد هذه الندوة من أجله تحت عنوان:

"العلامة أبو محمد صالح الهسكوري الفاسي وإسهاماته العلمية"

هذا وقد سبق للمجلة أن نشرت دراسة عنه، وجزوا من شرحه على الرسالة المتعلق بالمقدمة والعقائد وبداية العبادات، بيد أنه يجب التنويه بالجهد الذي بذله السادة الأساتذة الباحثون المشاركون في الندوة، وبالناتج الملموس الذي تم التوصل إليها من خلال أبحاثهم، والتي تعتبر بحق لبنات أخرى إضافية قد تساعد على تشكيل صورة تقريبية لهذا العالم، والتي نأمل فيما يستقبل من الأيام أن تكتمل في أجزائها المتبقية والتي لا تزال بحاجة إلى بحث واكتشاف.

أما النتائج التي تم التوصل إليها من خلال الأبحاث النجزة، فأهمها فيما يلي:

✓ ففيمما يخص عرض الدكتور إبراهيم بن عبلا العنوت بـ:
**"أبو محمد صالح الرسكوري الفاسي
الأوضاع العامة في عصره / تعريفه ومكانته"**
فتسجل له هذه الإضافات:

- اكتشف اسم أبيه وجده والنسبة، مما لم يرد له ذكر في كتب التراجم التي ترجمت له. فهو بناء على بحثه: أبو محمد صالح بن يحيى بن محمد الفازي الرسكوري الفاسي الحاج. فأثبت هذه الإضافة كلها اعتمادا على برنامج التحجبي، فقد ورد اسم أبي محمد صالح في سنده المتصل لرواية رسالة ابن أبي زيد القيرواني سماعا من أولها إلى باب النكاح، على الحافظ المقرئ أبي القاسم محمد بن عبد الرميم القيسي، مع إجازة سائرهما إن لم يكن قد كمل له سماعها على حد عبارته، عن الفقيه الحافظ الصالح الحاج أبي محمد صالح بن يحيى بن محمد الفازي، عن الفقيه أبي علي بن حسن بن محمد الكلبي، عن أبي القاسم بن بشكوال...¹ إلى آخر السند، الذي نستفيد منه الأمور الآتية:

- معرفة اسم أبيه وجده لأول مرة، فهذا مما لم يرد ذكره في كتب التراجم والطبقات.

- زيادة في النسبة، فهو "الفازي"، فقد اكتشفت خلال الزيارة للمنطقة وجود ضريح مقبب يحمل اسم "سيدي الفازي" هكذا مجردا، فلا

يبعد أن تكون لأبي محمد صالح علاقة به، وهذا يحتاج إلى مزيد بحث، فعلى الباحثين عن تاريخ المنطقة أن يتحروا عن هذا القبور في الضريح، عن أصله وفصله وتاريخه.

- رفع اللبس الذي سبق أن أشرت إليه في علاقته بابن بشكوال¹، فعن طريقه يروي الفقه المالكي كما ورد في أحد أسانيده الذي كان يطرح إشكالا يتعلق بعدم امكانية اللقاء به لبعد المسافة الزمنية بينهما، فتأكد لدينا اسم الشيخ الذي كان يروي عنه عن ابن بشكوال، وهو أبو الخطاب ابن دمية الكلبي الأندلسي السبتي (ت 633هـ) كما ورد ذلك في "برنامج التعجبي".

- أنه حج إلى بيت الله الحرام، فقد وصفه التعجبي بذلك، وهو لقب يقال في عرف المغاربة لمن سبق له أداء فريضة الحج بقية عمره، ولا يطلق إلا على من كان حاجا لبيت الله الحرام، وجمرت عادة طلبه العلم المغاربة أثناء سفرهم إلى الحج، أن يجمعوا بين العبادة وطلب العلم، فلا يبعد أن يكون أبو محمد صالح قد أخذ ما تيسر له عن بعض العلماء الذين قد يلتقي بهم في رحلته.

- أنه نزى فاس، وبها توفي²، ولم يكن مولودا بها على حد ما جاء في كتاب مفاخر البربر، عكس ما أشير إليه في مجلة المذهب المالكي، عدد: 11. ✓ وفيما يخص العرض العنوني بـ:

"التحول التاريخي للعقائد"

في عهد أبي محمد صالح الرسكوري ومنهجها فيها

وهو من إعداد كاتب هذه السطور، فأسجل ما يلي:
أولاً: أن الفكر المغربي متميز بالخصوصية والنماء على الدوام على مر العصور، والدليل على ذلك تقبله لكل الانتاجات الفكرية والعقائدية ودراسة كل الأفكار الإنسانية مهما كان مصدرها وحاملوها دراسة متأنية متفحصة للخروج بخلاصة القبول أو الرفض. وهذا ما ينطبق على تقبل أفكار الفرق الكلامية الوافدة في بادئ الأمر، ثم الاستغناء عنها إلى منهج أهل التسليم والتفويض، ثم إلى المنهج العقدي

¹ - ينظر العدد الحادي عشر من "مجلة المذهب المالكي" (ص 85).

² - مفاخر البربر (ص 168)، مجهول. تحقيق: عبد القادر بوباية. دار أبي رزاق، الرباط. الطبعة الأولى (2005م).

لتكلمي الأشاعرة، والذي لقي قبولاً وترحاباً، لأنه يجمع بين توظيف العقل والنهن الشرعي في نفس السياق.

ثانياً: أن النهج العقدي الأشعري خلال الفترة المرابطية رغم سيادة منهج أهل التسليم والتفويض، لكونه المذهب الرسمي المتبع من قبل الدولة القائمة، كان معروفاً لدى النخب الثقافية، خاصة تلك التي تلقت تعليمها من أقطاب الفكر الأشعري بالشرق الإسلامي، وهم مقتنعون به وعلى استعداد للتناظر على أساسه، ومن الأدلة على ذلك على سبيل المثال لا الحصر، تلك الرسالة الجوابية التي بعث بها ابن رشد الجد إلى أمير المسلمين علي بن يوسف المرابطي، جاء فيها: «فلا يعتقد أنهم: - أي الأشاعرة - على ضلال وجهالة إلا غبي جاهل، أو مبتدع زائغ مائل، ولا يسبهم وينسب إليهم خلاف ما هم عليه إلا فاسق»¹، فابن رشد هذا من أعلام المذهب المالكي في فترة سيادة الفكر السلفي القيرواني، لكنه على بينة وبصيرة من الفكر الأشعري، ومدافع عن آرائه ومقولاته.

فالتحول العقدي الرسمي إذنت الذي وقع في عهد أبي محمد صالح، تضافرت في تسيته وترسيخه جملة من العوامل الأساسية، وهي المعرفة السبقة بهذا المذهب من قبل النخبة الثقافية، واستعدادها لنشره عندما أتيتها لها الفرصة، والتي كانت بالطبع على يد المهدي بن تومرت.

ثالثاً: أن النهج الأشعري في ترسيخ العقائد، لم يكن بذلك الفكر النمطي الذي من شأنه تحنيط العقول وإفراغها من وظيفتها الإبداعية، فهو منهج مبني على الانفتاح والتناظر المشروع، وهذا من شأنه أن يخلق مجواً مناسباً من الجدك اللطيف الذي يتقبل الآخر ويحاوره والتي هي أحسن، بناء على الخلق الرفيع الذي بني عليه الإسلام، والذي منه أخذت القاعدة المنطقية المؤطرة للاختلاف: "إن كنت ناقلًا فالصحة، أو مدعيًا فالدليل".

رابعاً: أن أبا محمد صالح يمكن القول بناء على ظروف مجتمعه، والثقافة العقدية السائدة في عصره، أنه واحد من الذين يحملون الفكر الأشعري - وإن لم يصلنا عنه ما يدك على إفراده للعقائد بمؤلف خاص إلى حد كتابة هذه السطور - بناء على جملة من القرائن أبرزها نقوله

1 - فتاوى ابن رشد (805/1)، تحقيق: د. المختار التليدي.

عن أقطاب الأشاعرة، وتبني مقولاتهم، ثم السير على نهجهم وطريقهم.

✓ وفي الموضوع الثالث للدكتور إمام الطالبي المعنون بـ:
"الأثر الفقهي لأبي محمد صالح واعتمادها عند السادة المالكية"
تم تسجيل النتائج الآتية:

- أن بعض الفروع التي نقلت عنه تفتقد إلى الأدلة والنصوص، وتبقى مجردة عن دليلها خلافاً لنهجها في شرح الرسالة القيروانية التي يعتمد فيها على الأدلة، وقد تكون أحياناً معللة، ومع ذلك فإنها غير كافية في الجواب وغير شافية في التعليل، لاقتضابها وفقدان الكثير من ثرائها السادة المالكية الذي يتضمن آثار الفقيه السكوري.

- وقفنا في ثنايا هذه التعليلات على أمور غير مستساغة كما نقل عنه صاحب "مواهب الجليل" في مسألة تتعلق بالصلاة في لباس محلو الأثرار: «وقال أبو الحسن: "الأثرار" جمع زر، وهي الأتفالك التي يقفل بها الثوب الذي يكون مشقوقاً من تحت حلقه، قال الشيخ أبو محمد صالح: إنما يجوز إذا كانت لحته كثيفة؛ لأنه لا ينظر إلى عورته، وظاهر الكتاب وسواء كان ملتصقاً، أو غيره انتهى، فهذا غير وجيه، لأن إطلاق اللحية له حدود، فلا يصلح للتعليل، وإذا أضفنا إليه معلق به أبو الحسن على كلام الفقيه السكوري من أنه يخالف ظاهر المدونة، يتأكد مرجومية التعقيب والتعليل»¹.

- أسهم الفقيه أبو محمد صالح السكوري في إثراء الفقه المالكي باختياراته وتعليقاته وترجيحاته وتأويلاته، فقد نقلها التأخرون واستشهدوا بها في الكتب والمصنفات الفقهية، لكنها نقول قليلة إذا قورنت بنقول "المختصر" وشروحه، وبعض كتب النوازل، فلم يكونوا يرجعون إلى الكتب المعتمدة لدى المالكية وهي كثيرة كالتمهيد لابن عبد البر، والتهذيب للبرادعي، والنوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني، والجامع لابن يونس، والبيان والتحصيل، ولا يعني هذا التنقيص من قيمتها، والنيل من أهميتها؛ بل إن الرجوع إليها في الافتاء والقضاء أولى وأهم لموضوع عبارتها، أو سهولة أساليبها.

1- مواهب الجليل للخطاب (30/4).

✓ أما الموضوع الرابع للدكتور عبد الله أكرنزام، والعنوان به:
"البصمات الأصولية عند الشيخ أبي محمد صالح الرسكوري الفاسي"
فسجل هذه النتائج:

أولاً: ازدهار الحركة العلمية بالمغرب خلال القرن السابع الهجري،
على الرغم من الاضطرابات السياسية أواخر العصر الموحدي.
ثانياً: مكانة أبي محمد صالح الرسكوري الأصولية من خلال:
أبرزه الشيوخ الذين أخذ عنهم، وهم من كبار أصوليي القرنين
السادس والسابع الهجريين.
أبرزه من أخذوا عنه من التلاميذ ممن لعت أسماؤهم خلال القرن
السابع.

تعرض أبي محمد لأبرز المتون والمختصرات الفقهية بالشرع، وهي
رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وهو أول الشروح الفقهية عليها.
ومثل هذا العمل يحتاج إلى بضاعة وافرة في الأصول.
أهمية القضايا الأصولية التي أثارها وقتن بها الاجتهاد، أصولاً
وفروعاً.

اعتداد العلماء بأرائه واجتهاداته الفقهية في فهم متن الرسالة،
تأويلات وترجيحها....

مضوء المصطلح الأصولي بكثرة في ثنايا الشرع والناقصة والتعليق
والترجيح. والحمد أولاً وآخر، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله.

وكتبه مسؤول اللجنة: (أبو عمر) محمد بن بلعبر (منو البوطيني).